ثلاثة ملايين وربع ودينها نحو ٢٩ مليون جنيه وكانت قيمة الصادر منها سنة ١٨٩٢ نحو ثلاثة ملايين وثلث من الجنيهات وقيمة الوارد اليها نحو اربعة ملايين و ٧٧٠ الف جنيه وجيشها العامل ٢٤ الفاً ويمكنها ان ترسل الى ساحة القتال مئة الف محارب . وعندها ثلاث بوارج من الدرجة الثانية ونفقات بحريتها ٢٥٦ الف جنيه

وملكها جورج الاوّل ابن ملك الدانمرك ولد في ٢٤ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٤٥ ونُصّب ملكاً عليها في ٣١ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٦٣ والحكومة دستوريّة وفيها مجلس نوّاب اعضاؤهُ ١٥٠ ينتخبون لاربع سنوات

مشاهد اوربا

٣٣

مدارس اكسفرد ووداع لندن

لم اشأ ان اغادر بلاد الانكليز قبل ان اشاهد مافيها من بيوت العلم الّتي ذاع صيتها في الاقطار بما نبغ منها من الرجال الذين رفعوا منار بريطانيا ووسدوها مرابع المجد والفخار . فزرت بعض المدارس الكبيرة كمدرسة الملك الكليّة ودار العلم الامبراطوريّة ولكنني لم القَ احداً من اساتذتها لانني اتيتها في فترة الصيف حين تُقفَل المدارس ولأنّ الحرّ كان قد ضرب اطنابهُ في هذه البلاد بما لم يُعهد لهُ مثيلٌ فنفر الناس الى الجبال او قصدوا الاصقاع الشماليّة هرباً منهُ . فقصدتُ مدينة اكسفرد جامعة المدارس ومرضعة العلوم وركبت مركبة سريعة السير (هنسماً) الى محطة سكة الحديد لأركب قطاراً يقوم صباحاً قبل اشتداد الهجير . فاذا جانب من الطريق غاصٌّ بالمركبات ولما رأى السائق شدّة الازدحام ركب طريقاً آخر طويل الشقة فبلغتُ المحطة والقطار يصفر للقيام كأنّهُ يتنفّس الصعداء . فدفعت جنيهاً الى وكيل التذاكر واسرعت الى القطار وكان قد احتفز للقيام فسار بنا يذهبُ الارض نهباً ويطوي صدورها على الاعجاز . وكانت العمارة على جانبي الطريق متصلة والمصانع فيهما منتسقة والدخان مسردق فوقها والمداخن بارزة منها كأنها عُمُد السماء ثم انفسح مجال الفضاء وانبسطت المروج على الجانبين وترنحت ادواحها بنسيم الصباح

كأنّ فروعهنّ بكلّ ريحٍ عذاري بالذوائب ينتضينا

فاطللتُ من النافذة اسرّح الطرف في ما امامي من الرياض والغياض فرأيت الارض كثيرة السهول والحزون يدلُّ مكسرها على ان خصبها صناعي لا طبيعي لان التربة رقيقة لا يزيد سُمكها على قدمٍ او قدمين لكنَّ المروج نضرة واكثرها مزارع أحصَدَ زرعُها او مراعٍ سُوّمت فيها القطعان والصافنات الجياد وطرزت حواشيها بخمائل الرياحين والازهار

شقائق يحملن الندى فكأنهُ دموعُ التصابي في خدودِ الخرائدِ

ولم نبلغ مدينة اكسفرد حتى نضرتنا الهواجر وتسمّرت المعامع

بيوم لو انَّ اللحمَ يُصلى بحرهِ غريضاً اتى اصحابهُ وهو مُنضَجُ

فاذكرني ايام الخماسين ولو خلا من لواقحها . بل الحرُّ في تلك البلاد اشدُّ وطأةً على ساكنيها من الخماسين علينا لانَّ بعضهم ينقع به وقلما نسمع عن احد نقع في بلادنا . ولما وقف القطار وخرجتُ الى المدينة التفتُّ يمنة ويسرة فاذا انا

ببلدٍ اغبر مصخودِ الخرَبْ لو تُذِفَ الكتّان فيهِ لالتهبْ

فلم اكد اصدّق انني في اكسفرد التي سارت بذكرها الركبان ونشأ فيها نجبة رجال الانكليز وزهرة فتيانهم حتى مررتُ بين المدارس فرأيتها تتنافس في القِدَم وتناطح بصوامعها السحاب وقد شيَّب الدهر نواصيها والبسها ثوب المهابة والوقار . ولم اكد اصدق ان عمر اقدمها بضع مئين من السنين لاننا نعدُّ سني مبانينا القديمة بالالوف لا بالمئات . ولما وصلت الى مكتبة اكسفرد الشهيرة بمكتبة بدلي (١) قابلني مديرها بالترحاب فاذا بي ما عندهم من نفائس الكتب القديمة ولا سيما الكتب العربية ورأيت هناك كثيراً من المصاحف ومنها مصحف مكتوب على صفحة واحدة . وهم لا يكتفون بجمع الكتب بل يجمعون الرقوق والاوراق القديمة على انواعها وقد رأيتُ منها حجة عربية مصرية مكتوبة على رق الغزال تاريخها ٢٤ رمضان سنة ٦٣٢ للهجرة

وبلغني ان في المكتبة اكثر من سبع مئة الف مجلد وهي تزيد عاماً بعد عام زيادة كبيرة لان كل من يطبع كتاباً في البلاد الانكليزية يهدي اليها نسخة منهُ بحق شرعي خوّلتها اياهُ الحكومة . وقد بلغني ان عدد الكتب المهداة اليها من هذا القبيل في العام الماضي (١٨٩٢) نحو اربعين الف مجلد وابتاعت هي نحو ستة آلاف مجلد واهدى اليها

(١) نسبة الى السر توما بدلي وكان من تلامذة اكسفرد ومن العارفين باللغة العبرانية وكثير من اللغات الحديثة جمع كتباً كثيرة انفق عليها عشرة آلاف جنيه ثم وهبها لهذه المكتبة في غرة القرن السابع عشر

اناس آخرون ٩٢٦٥ مجلدًا وجملة ذلك ٥٥٥١٨ مجلدًا زادت فيها في سنة واحدة اي اكثر من كل المجلدات التي في المكتبة الخديوية المصرية . وفيها رواق كبير جمعوا فيهِ كثيرًا من نفائس الصور والتماثيل ولا سيما صور الملوك والملكات والرجال العظام الذين تلقوا الدروس في مدارس اكسفرد في صباهم . وهناك مُثُل تمثل المباني الشهيرة قديمة وحديثة كالهيا كل والمشاهد والكنائس ونحوها وبعضها من المرمر الابيض الشفَّاف وقد افرغ الصنَّاع مهارتهم في عملهِ فجاء آية من آيات الجمال

وسار معي المذير الى المعرض العلمي وهو دار كبيرة حديثة البناء مرفوعة العماد ناب فيها الحديد عن الرخام والزجاجُ عن الخشب فجاءت فسيحة الرحاب متينة البناء باهرة النور . ودخول هذا المعرض محظورٌ في مثل ذلك الوقت لكن لماعلم المعتنون بهِ غرضي وبُعد داري رحَّبوا بي وسار واحد منهم بين يديَّ يريني ما فيهِ من النفائس حتى التي يحظر على الجمهور رُؤيتها كالمستحضرات التشريحيَّة والفسيولوجيَّة . ولا ادري كيف اوفي هذا المعرض حقهُ من الوصف فان فيهِ مثلاً من كل ما في الارض من جماد وحيوان ممَّا يدخل في علم طبقات الارض ومعادنها ومتحجراتها وبهائمها وطيورها وحشراتها وكل ذلك مرتب ترتيبًا علميًّا ومبوَّب بحسب اجناسهِ وانواعهِ او مددهِ وفصولهِ . ولا غرو فان الذين يرتبون هذه المعارض هم العلماء الاعلام الذين لهم في هذه العلوم الباع الطولى وفي تدريسها وتمحيصها القدح المعلَّى . فترى المكوِّنات الجيولوجية واشكال الحجارة والمرمر والرخام والبلق والحمم وغيرها من المقذوفات البركانيَّة مرتبة في الخزائن وعلى الموائد وبجانب كلٍّ منها اسمهُ واسم المكان الذي جُلب منهُ . والمعادن على انواعها واشكالها من الذهب والفضة والنحاس والحديد بل من المعادن النادرة جدًّا التي لا تذكر الَّا في كتب الكيمياء . والحجارة الكريمة من الالماس والياقوت والزمرُّد الى العقيق والفيروز والبلور . والبهائم والطيور والحشرات على اجناسها وانواعها واشكالها مصبرة قائمة كأنها حيَّة ترزق وبجانب كلٍّ منها هيكلهُ العظمي وبجانب بعضها مُثُل تمثل احشاءها وامعاءها حتى يراها الطلبة ظاهرًا وباطنًا . وممَّا استوقفني عظام التنانين والبهائم البائدة ففيها عظام ساق حيوان يشبه التمساح طول العظم منها نحو خمس اقدام وبجانبهِ عظم تمساح من تماسيحنا طولهُ نحو ثلثي القدم فيقتضي القياس ان يكون ذلك التمساح اطول من التمساح العادي سبعة اضعاف

ثم زرتُ الاستاذ تيلر الشهير في علم آثار الانسان واخلاقهِ وهو يسكن على مقربة

من هذا المعرض في بيت يكاد يكون معرضاً لذاته فرأيت منهُ شيخاً جليلاً صبوح الوجه واسع الرواية انيس المحضر تظنهُ لدعتهِ ولداً صغيراً ولاهتمامهِ بعلمهِ عاشقاً ولعاً. فجلست اليهِ تتجاذب اطراف الحديث ثم قام واتى معي الى المعرض الاثنولوجي واراني ما فيهِ من آثار الانسان من كل البلدان والاقاليم وقد رتّبها ترتيباً يظهر فيهِ تدرُّجها من البسيط الى المركّب ومن السادج الى المتقن . فترى فيها انواع التماويذ والتمائم وآلات الغناء وانواع الحلي والآنية وغير ذلك مما يطول شرحهُ . ومن اغرب ما رأيتهُ هناك ان السحر لم يزل يستعمل في اطراف بلاد الانكليز حتى يومنا هذا ويصنع بالسحرة دمى يسحرونها بحسب اغراضهم فهي وهم كالاعضاء الاثرية في جسم الانسان تدل على سابق تاريخهِ في مدارج العمران

وزرت معمل الكيمياء فرأيتهُ دون ما يُنتظر لكن هذا العلم لا يعتمد على الظواهر فان كبار المكتشفين فيهِ لم يكن لديهم الاَّ البسيط من ادواتهِ . وزرت معرض الآلات الطبيعية وهي كثيرة تدلُّ على ان اساتذة هذا الفن جارون فيهِ مع المكتشفات الحديثة

ثم زرت بعض المدارس والكنيسة القديمة في المدرسة المسماة كيسة المسيح ورأيت فيها شيئاً من بناء السكسونيين القدماء وهو شبيه بالبناء البزنطي. وغرفة المائدة المشهورة وهي اكبر غرفة في البلاد الانكليزية بعد رواق وستمنستر فان طولها ١١٥ قدماً وعرضها اربعون قدماً وعلوها خمسون وقد صُنع سقفها سنة ١٥٢٩ من السنديان الارلندي ونحو بديع الصنعة والنقش . وسرت الى النهر حيث يتبارى تلامذة اكسفرد وتلامذة كمبردج في سباق الزوارق . ورأيت المشهد وتماثيلهُ وبعض الصوامع . ولم تمكني الفرصة من مشاهدة مدارس اكسفرد كلها لانها كثيرة تبلغ اربعاً وعشرين مدرسة مع ان عدد تلامذتها كلها اقل من ثلاثة آلاف . وبعضها قديم جداً بني منذ ستمئة وخمسين سنة وبعضها حديث بني منذ اقل من عشرين سنة واكثرها بني في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر

وعدتُ من اكسفرد الى لندن نحو المساء ولما وقعت عيني على عين وكيل "التذاكر" تبسم وقال لقد شغلتك العجلة عن اخذ ما بقي لك قبلي من الدراهم ثم اعطانيها وكانت موضوعة وحدها فعجبت من اتقانهِ ونباهتهِ واحمدت التربية الانكليزية التي تجعل الصدق والامانة من اول دعائمها

ونمت تلك الليلة على اهبة السفر وغدوت في الصباح الى مدينة دوفر وسرت منها الى

كالي . واتفق انني ركبت باخرة جديدة كبيرة جدًّا يبلغ طولها ٣٢٥ قدماً فلم اشعر بالدوار ولا باضطراب البحر مع انهُ كان مضطرباً . وقد شقَّ عليَّ فراق لندن والبلاد الانكليزيَّة قبل ان اتمكن من رؤية كل ما فيها من آثار العمران ونتائج العلم ولكن للايام احكاماً

ولستُ باولِ من فاتهُ على رفقهِ بعضُ ما يطلبُ

ولما بلغتُ جبال سويسرا واسترحتُ من وعثاء السفر تذكرتُ ما لقيت في مدينة لندن فجاش الشعر في خاطري وقلت فيها هذه الابيات

يا ناشدًا خَلَف الرومان في الدولِ ... وطالبًا ظلَّ مجدٍ غير منتقلِ
عرِّجْ بلندن تلقَ المجد قد رسخت ... اصولهُ وسما فرعًا الى زُحلِ
تلقَ الكماة وابناء الكماة ومَن ... بنوا صروح العلى بالبيض والاسلِ
ودوَّخوا الارض فانقادت لطاعتهم ... تلك الملايين مثل الاينق الذللِ
تلقَ النفائس والاعلاقَ قد عُرضت ... من المعادن والاحجار والحُللِ
وكل ما صنع الصنَّاع او جلب التجـار من ... شاسع الامصار والحِلِلِ
تلقَ المعارض والآثار ناطقة ... فيها بأخبار اهل الاعصُر الاوَلِ
وعصبة العلم والآداب دائبة ... في البحث عن اثَرٍ والنقب عن طَلَلِ
تلقَ المكاتب قد ضمَّت قماطرها ... صحائف العلم والآداب والجدَلِ
من كل ما خُط في القرطاس اوجمعتْ ... فيهِ الدفاتر من حالٍ ومن عطُلِ
تلقَ المدارس قد مدَّت موائدها ... لكل منتجع في العلم معتملِ
فيها الاساطين والاحبار تحسبهم ... لخدمة العلم مبعوثين كالرسلِ
لم انسَ لا أنسَ بستانًا رأيتُ بهِ ... بهائم الارض من سهْل ومن جبَلِ
وكل ما طار او خاض البحار وما ... تحت الثرى من خشاش الارض والجعلِ
كأنهُ فلك نوح في مخادعهِ ... من كل ذي نسمة يسعى الى أجلِ
وروض هَيَّد بهِ الادواح باسقة ... تهتزُّ اعطافها مثل القنا الذبلِ
ترى رياحينهُ من حول بركتهِ ... خُوْدًا رشفنَ نمير الماء بالقللِ
والبرلمانُ سمت منهُ صوامعهُ ... وضم كل حصيف ماجد نبَلِ
شورى ترنُّ بها شكوى الشعوب على ... بعد المواطن والاجناس والملَلِ
في عصر فكتوريا خطَّ اليراع بها ... في جبهة الدهر سطرًا غير منتحلِ
اعلى الممالك ما بالعدل شدتَ وما ... " اعلى الممالك ما يُبنى على الاسلِ "